صورة الآخر (العربي) في الأدب الفرنسي
رحلة مدام ديولافوا من المحمّرة إلى البصرة وبغداد سنة 1881م–1299هـ (نموذجاً).

د. محمد العنيزان[1]
1 مدرس، قسم اللغة العربية، كلية الآداب الرابعة، جامعة دمشق.
mohmad.alonizaan.damascusuniversity.edu.sy

الملخص:
حاولتُ في هذا البحث التقاط ملامح الهوية العربية بوصفها آخرَ قومياً حاضراً في أدب الرحلة الفرنسي؛ وفي البداية أشرت سريعاً إلى المعاني اللغوية و الأبعاد الاصطلاحية لمصطلح الآخر، ثم سعيت ضمن البحث إلى تتبع موضوعات تجلي صورة العرب في رحلة مدام ديولافوا من المحمّرة إلى البصرة وبغداد سنة 1299هـ – 1881م؛ أي إبان الاحتلال العثماني للوطن العربي، وقد استطاعت الأديبة تصوير مختلف الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والاجتماعية، أو حتى تلك التي لها صلة بطبيعة العلاقة بين مكونات المجتمع العربي الإسلامي في المناطق التي زارتها، ولم يُغفل البحثُ–في أثناء سرد الموضوعات التصويرية– رصدَ مصادر الأديبة فيما نقلته من صور، يضاف إلى ذلك إبراز أنماط التصوير وأشكاله ودواعيه، كذلك سلط البحث الضوء على بعض الصور المشوهة، وبين أسباب ذلك التشويه، وقد اقتضت طبيعة البحث الاستعانة بالمنهج الوصفي التحليلي.

الكلمات المفتاحية: الصورة– الآخر– النمط–المصدر–التشويه– الاعتراف–الرفض.

تاريخ الايداع: 2022/11/8
تاريخ القبول: 2023/1/3

حقوق النشر: جامعة دمشق – سورية، يحتفظ المؤلفون بحقوق النشر بموجب الترخيص
CC BY-NC-SA 04

The image of the other (Arabic) in the French travel literature Madame Diolavua's journey from Muhammarah to Basra and Baghdad in the year 1881AD-1299AH (model)

Dr. Mohmad AlOnezaan[2]
[2] teacher member faculty rank: and status academic.

Abstract:

In this research, I tried to capture the features of the Arab identity as a national identity present in the French travel literature; In the beginning, it was necessary to quickly refer to the linguistic meanings of the other and its idiomatic dimensions, then the research sought to trace the themes of the manifestation of the image of the Arabs in Madame Diolavo's journey from Muhammarah to Basra and Baghdad in the year 1881 AD-1299 AH, the writer was able to portray various social, economic and social aspects, or even Those that are related to the nature of the relationship between the components of the Arab-Islamic society in the areas it visited, and the research did not neglect - during the narration of the pictorial topics - monitoring the literary sources in the pictures it transmitted, as well as highlighting the patterns, forms and reasons for photography, and the research also shed light on some distorted images. And the reasons for this distortion.

Key words: Image, The other, Pattern, Source, Distortion, Recognition, Rejeection.

Received:8/11/2022
Accepted:3/1/2023

Copyright: Damascus University- Syria, The authors retain the copyright under a

CC BY- NC-SA

أولاً: من الأديبة؟ وما أسباب رحلتها؟

جين ديولافوا هي زوجة مهندس فرنسي اسمه مارسيل ديولافوا، وكان لهذا الرجل شغف بعلم الآثار، ولديه أبحاث وتحقيقات قيمة في هذا المجال من العمارة في مختلف الحضارات الشرقية.

كانت جين من عائلة غنية، وقد دخلت ديراً للراهبات، فتعلمت لغات عدة، وكانت ماهرة في الرسم والتصوير، وعندما بلغت من العمر الثامنة والعشرين، رافقت زوجها إلى بلاد فارس في رحلة كان الهدف منها دراسة احتمال أن يكون للحضارة الساسانية تأثير في الفن الإسلامي أولا ؟ ثم زارا العراق لمدة شهرين عام 1881.[1].

ثانياً: الآخر(المعاني اللغوية والاصطلاحية):

أ- المعاني اللغوية:

الآخر هو المختلف " كقولك: رجل آخَرُ، وثوبٌ آخَرُ، وأصله أَأْخرُ، أفعل من التأخير، فلما اجتمعت همزتان في حرف واحدٍ اُسْتُثْقِلتا، فأبدِلَتْ الثانية أَلِفاً، لسكونها وانفتاح الأولى قبلها... وتصغير آخر أُوَيخِر..."[2]، أمّا جمعه، فيكون "بالواو والنون.."[3]، ويجمع كذلك على أُخَر، جاء في العين " وأما أُخَر، فجماعة أخرى.."[4]، وتتضح صحة هذا الجمع أكثر في اللسان، عندما يقول ابن منظور: " أُخَر لا ينصرف، لأن وحداتها لا تنصرف، وهو أُخْرى وأُخَرُ..."[5].

ومن خلال ما تقدم من معان لغوية نجد أن الآخر هو كل ما خرج من نطاق الأنا، وبهذا يكون المعنى اللغوي للآخر أوسعَ بكثير من بعض المعاني الاصطلاحية التي حاول أصحابها حصر دلالته فيها، فقصروها على: المرأة . العدو... .

ب- مصطلح الآخَر وإشكاليته:

ينطوي مصطلح الآخر على إشكالية تنبع من ارتكازه على مبدأ الاختلاف أساساً يحكم على آخَرِيّةِ الأشياء، ويعين مدى انتمائها إلى الأنا، أو مقدار قربها أو بعدها عنها، ولعل هذا هو ما جعل هذا المصطلح مفهوماً " مطّاطاً..، فقد يشير إلى ما اختلف عن الذات في الجنس، أو الطبقة، أو المجتمع، فالذكر يمثل الآخر للأنثى، الفرد والجماعة، الفقير والغني، السيد والعبد..."[6]، وهو كذلك. " الغير (باعتباره) طرفاً مفارقاً للذات الاجتماعية متميزاً عن الأنا، وله كيانه المستقل..."[7]، وهو مفهوم يدلّ على أولئك الذين خرجوا من دائرة الأنا، وأضحوا خارج محيطها لنقص اعتراهم؛ إذ " يذهب باحثون عصريون مثل ميشال فوكو إلى إدراك الآخر، باعتبار أنه شخص غير طبيعي ومجنون ومعوّق..."[8]، ولأن الناظم الأساس للآخر هو الاختلاف، فإن معاييره كثيرة، تختلف بحسب الزاوية التي تنظر منها الأنا إلى الآخر، فيبدو لها غير ذاتها، وقد تكون هذه المعايير معنوية يتدخل الإنسان فيها، مثل طريقة التفكير ونوعه، والدين والانتماء، وقد تكون خارجة عن إرادته مثل بعض الملامح الظاهرية[9]، بتأثير ظروف خارجة عن طبيعة الإنسان، منها اختلاف لون الجسد مثلاً....

وتضيق دائرة الأنا بقدر ما يحتاج إليه الفرد من عناصر ليكون عضواً مقبولاً فيها، وبناء عليه، فقد غدا لدينا كثير من التصنيفات المتشعبة والمتداخلة للآخر، إذ بات لدينا ما يعرف بالآخر الخارجي: وهو غير الأنا في كل شيء، إنه " النقيض العقائدي

---

[1] انظر: رحلة الفرنسية مدام ديولافوا من المحمّرة إلى البصرة وبغداد سنة1299- 1881م: جان بل هنريتديولافوا، ترجمها عن الفارسيّة: علي البصري، مراجعة وتقديم: د.مصطفى جواد، الدار العربية للموسوعات، ط1، 1427هـ، ص7-8.

[2] لسان العرب: ابن منظور، تحقيق: عبدالله علي الكبير الشاذلي، دار المعارف، القاهرة ، ط1، 1979م، مادة: أخر.

[3] تاج اللغة وصحاح العربية: إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار الكتاب العربي، ط1، 1956م مادة: أخر.

[4] العين: الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: عبد الله درويش،، الدار القومية، بغداد، ط1، 1967م، مادة (أخر).

[5] المصدر نفسه، والمادة نفسها.

[6] صورة الآخر في الشعر العربي...: سعد فهد الذويخ، ص1، بتصرف.

[7] الإسلام والرأي الآخر (تجربة الإمام علي نموذجاً): حسن السعيد، دار الهادي، ط1، 1424هـ . 2003م، بيروت، ص46.

[8] صورة الآخر العربي ناظراً ومنظوراً إليه، تحرير: الطاهر لبيب، مركز دراسات الوحدة العربية، الجمعية العربية لعلم الاجتماع، بلا رقم طبعة و تاريخ، ص55.

[9] انظر: الإسلام والآخر (دراسة مقارنة): عبد الرحمن عطية، دار الأوزاعي، حلب، بيروت، ط1، 1427هـ .2006م، ص16.

والتكويني والسياسي، وأحياناً كثيرة الجغرافي أيضاً..."[10]، إنه الآخر الذي يقع . تماماً. خارج دائرة الأنا، ولا يمكن أن يُدخِله إليها إلا توسيعُ محيطها ليستوعب الإنسانية جمعاء.

وثمة ما يمكن أن نسميه الآخر المزدوج[11]، الذي يكون – لسبب ما– ضمن دائرة الأنا، ويُخرجه منها سببٌ آخر، فالأرض العربية. مثلاً. أنا كبيرة تضم كل مَن سكن عليها، وأقام فيها إقامة شرعية، ولكنها. في المقابل. تضم تصنيفات آخرية، فالأرمني الذي هو ضمن دائرة الأنا، يصبح آخر، بالاستناد إلى المعيار القومي العربي، ولكنها آخرية حميميّة، لا تلغي الانتماء إلى الأرض؛ إذ يبقى الولاء لدائرة الانتماء الأوسع.

ثالثاً: صورة الآخر (العربي):

على مر العصور لا نعدم حضوراً للآخر في الأدب العربي، وثمة من يرى أن الرحلات العربية إلى بلاد الآخر، هي الأب الشرعي للصورلوجيا[12]، وأنها هيأت لولادتها[13]، وبصرف النظر عن مدى دقة هذا الكلام بخصوص نشأة الصورلوجيا التي هي "اصطلاح... يشير إلى دراسة صورة شعب عند آخر، باعتبارها صورة خاطئة..."[14]، فإنه لا شك في أن رحلة الآخر إلى الأرض العربية خلقت–من جانبها– حضوراً للعربي في كثير من الآداب القومية للشعوب الأخرى؛ وجعلت منه مدركاً حسياً لتلك الأقوام؛ فخبروا عاداته وتقاليده وصوراً كثيرة من حياته، ولكن على الرغم من تلك المعرفة، لم يسلم العرب من جهل الآخر لهم، من جهة، ومن وجود صور مشوّهة له في كثير من المواقف، من جهة ثانية، ومن أسباب ذلك طبيعة العلاقة التي كانت تحكم العربي بالآخر؛ فالصراع معه كان هو العنوان الأبرز.

تمكنت الأديبة الفرنسية من التقاط كم هائل من الصور الشمسية (الفوتغرافية) للمجتمعات التي مرت بها، ولاسيّما المجتمع العربي والإسلامي، ولكنها فيما دونته من يوميات لرحلتها أمدتنا بأضعافها من الصور الحية التي لحظتها بنفسها، بدافع الدهشة حيناً، والرفض حيناً، والإعجاب المشبوب بالمحبة والرضا حيناً آخر، فتعددت موضوعات تلك الصور، واختلفت غايات التصوير وأنماطه ومصادره، وفيما يأتي سنحاول رصد أهم موضوعات هذه الصور، ومناقشة مصادرها وأنماطها.

أ– الأنا المؤثرة والآخر المتخلف:

تمتلك الأديبة حس المؤرخ، والذوق الجمالي للأديب، ولكنها وقعت في بعض المواقف تحت تأثير مركزية أوربية فرنسية حملتها على إطلاق أحكام مبالغ فيها، وذلك في ما يتعلق بالتغني بحضارة الغرب، والاستهانة بمكانة الآخر الشرقي بصورة عامة، والعربي بصورة خاصة، فلم تر في هذا الآخر غير الضعف والعجز عن الأخذ بركب الحضارة[15]، وعدت محاولة تحضيره أمراً مستحيلاً؛ فهو يفتقد كثيراً مما يمتلكه الغرب:

"يعتقد جماعة من ساسة أوروبا المحنكين! أنه من الممكن نقل الحضارة الغربية الجديدة إلى الشرق، والعمل على تمدينه، وتلقيحه بمبادئ هذه المدنية المادية الحديثة في شتى مرافقه، ولاسيما في شكل حكومته...، ولكن أي اعتقاد خاطئ هذا... إن ماكنة حضارتنا– نحن اليوم– معقدة بحيث لا يستطيع القيام بها شعب من شعوب الشرق الجاهل الساذج هذا.

إن العادات و القواعد الأوروبية لا تستطيع أن تعمل على ترقية البلدان الشرقية وتقدمها، بل ينبغي علينا أن نوجد لهم مبادئ أخرى نستخلصها من روحيتهم، و مزيّاتهم النفسية" [16]

---

[10] المرجع نفسه، ص55.

[11] انظر: المرجع نفسه ، ص63.

[12] انظر: مدارس الأدب المقارن: سعيد علوش، المركز الثقافي العربي، ط1، 1987م، ملحق (3).

[13] انظر: إشكالية التيارات والتأثيرات الأدبية في الوطن العربي (دراسة مقارنة): سعيد علوش، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1406هـ . 1986م، ص145.

[14] معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة: سعيد علوش . دار الكتاب اللبناني، بيروت، سُوشيريس، الدار البيضاء، ط1، 1405هـ– 1985م، ص137.

[15] المركزية تجعل الأنا لا ترى في الآخر إلاّ التأخّر الحضاري والثقافي...، انظر: المركزية الغربية: عبدالله إبراهيم، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط1، 1997، ص35.

[16] رحلة الفرنسية...، ص84.

ونجد هنا ضرورة الإشارة إلى قضية مهمة، وهي أن الأديبة التي اتهمناها بالمركزية الأوربية، وهو واضح في كلامها، قامت هي نفسها بتلخيص حالة مهمة تخص الغرب والعرب والشرق بصورة خاصة، وهو افتقار الآخر لتلك المادية الأوربية، وسيطرة العنصر الوجداني، وهذا أمر لا نختلف فيه، ولكن الأديبة جافت الصواب عندما عدت ذلك عائقاً يحول دون بناء الدول الحديثة، وهذا حكم باطل، والدليل أن العرب بصورة خاصة، وفي أوج التزامهم الروحي والأخلاقي والوجداني مروا بعصر ازدهار، وتمكنوا من بناء أعظم الدول حضارة ومدنية، والأديبة نفسها تغنت بذلك في أكثر من موقع من رحلتها.

ب- الاعتراف بالآخر العربي:

إنّ المركزية الأوربية التي تحدثنا عنها، لم تصاحب الباحثة مطلقاً؛ إذ إننا نجدها غير مرة تعترف بحضارة العرب، وهنا من الضروري التوقف قليلاً لنشير إلى أن الاعتراف بقوة الآخر العربي وإيجابيته، كانت أكثر ما تكون مسلطة على تاريخ هذا الآخر، أمّا حاضره فلم يرق للباحثة في كثير من الأحيان، ومن ذلك قولها في بغداد:

"هذه هي عاصمة الخلفاء العظماء الذين استطاعوا أن يفتحوا بلداناً كثيرة، وأن يرفعوا علمهم على أعالي مدن أسبانيا، وأن يُخضعوا لحكمهم مدن العالم الكبيرة الأخرى"[17].

وفي موقع آخر يظهر أسلوب الأديبة وجرأتها في الاعتراف أقرب ما يكون إلى أسلوب مؤرخ عربي صرف:

" وفي الوقت الذي كانت أوربا غارقة في ليالي الجهل والوحشيّة، كانت بغداد هذه موطن العلم والمعرفة ومركز الإشعاع في الدنيا كلّها"[18].

ولعلّ تفسير هذا الصدق الانفعالي، هو الفرق الشاسع بين حاضر مدينة بغداد وماضيها المختزن في وجدان الأديبة ووعيها.

والاعتراف بالآخر قد يكون موجهاً – إن جاز لنا القول- إلى الآخر القريب[19]، وهنا أورد ما ذكرته الأديبة من فرق بين الكنيسة الشرقية والغربية، واعترافها بتفوق الأولى في الأناشيد الدينية:

" كان المحراب مغطى بقطعة قماش مورّد...كان الراهب بعض الأحيان يتلو أدعية بصوته الأجش، وأحياناً أخرى يقرأ الأطفال الأناشيد الشجيّة الأخّاذة بأصواتهم الرقيقة، والواقع أنّني لم أحسّ في هذه التشريفات أي تعب أو ملل قطّ؛ لأنها لم تكن طويلة كالتي تحدث عندنا في أوربا"[20].

وفي درجة أسمى قد يكون الاعتراف بالآخر البعيد، ومن ذلك ما قالته الأديبة في تصوير حياة البدو الذين خالطتهم، فنقلت تفاصيل مهمة من حياتهم قي ثوب التصوير النقلي التسجيلي، ومن ذلك قولها وقد اعترفت فيه بعظمة الإسلام وتعاليمه:

"ولعلّ من الطريف أن أذكر أن تلك المقادير الكثيرة التي يلتهمونها، تجعلهم يترنمون كالسكارى...كما أن تناول العنب والتمر بكميات كبيرة، يجعلهم في مثل هذه الحالة أيضاً، وهنا تظهر لنا الحكمة البالغة في نهي نبي الإسلام أتباعه عن تناول المشروبات الروحية" [21].

وفي نهاية هذا المقام نجد أنّ الاعتراف بالآخر كان مصدره –وبالدرجة الأولى– قوة الأنا نفسها؛ وذلك لأن الأنا عندما تكون مفعمة بالقوة، ومدركة لعناصر هذه القوة التي تمتلكها، تكون أكثر جرأة في إعطاء الآخر حقه، مما لو كانت مكبّلة بقيود الهزيمة الداخلية.

ت- العرب المسلمون والاعتراف بالآخر اليهودي:

كان مما سجلته يوميات الأديبة قضية مهمة، وهي تلك التي تتعلق بموقع اليهود في المجتمع العربي بصورة عامة، والمسلم بصورة خاصة، ويعدّ كلامها وثيقة تاريخية يستند إليها كل من يرغب في وضع المتلقي أمام حقيقة العلاقات التي كانت تنظم المكون اليهودي بالمكونات الأخرى، وهي علاقة عنوانها التسامح الديني، وإذا ما دققنا في التوصيف الذي قدمته الأديبة نجدها تورده ونصيب كبير من الدهشة يلفها، وكأنها كانت تتوقع غير ما رأته من تسامح المسلمين، واعترافهم بحقوق الآخر مهما كانت معايير آخريته:

---

[17] رحلة الفرنسية...، ، ص151.

[18] المصدر نفسه، ص65.

[19] "الآخر القريب هو الذي يتقاسم مع الأنا البيئة والثقافة واللغة والهواء و... والبعيد لا يشترك معنا إلا في البعد الإنساني..."، انظر: صورة الغرب في الأدب العربي، رواية فياض لخير الذهبي (نموذجاً): غسان السيد، مجلة جامعة دمشق، المجلد 24، العدد 3+4، 2008، ص89.

[20] رحلة الفرنسية مدام ديولافوا...، ص158.

[21] المصدر نفسه، ص158.

"اليهود في هذه المدينة (تقصد بغداد) يتمتعون بقوّة، وتكاد شؤونهم التجارية والاقتصاديّة تنحصر في أفرادهم؛ لذلك تكوّنت هذه الطائفة المتمولة في البلاد.

يختلف حي اليهود عن الأحياء الإسلاميّة بشكل واضح بيّن، فلمنازل الإسرائيليين شبابيك ومشارف ذوات سياج حديدي تطلّ على الأزقّة، وتستطيع النسوة اليهوديات مشاهدة المارين خلالها دون أن يستطيع هؤلاء مشاهدتهنّ، والمرأة اليهودية –على العموم– منزوية في البيت قلّما تخرج إلى الخارج، وتنحو نحو البساطة في أمور التواليت، ولكنهن في المناسبات يزين أيديهن وصدورهنّ بأسورة وقلائد...اليهود هنا يرغبون في اقتناء الجواهر والمعادن النفيسة كثيراً..." [22]

إنّ اليهود–وفقاً لكلام الأديبة– مارسوا كل ما يرسم متممات حدود آخريتهم(شكل خاص للأبنية– صورة المرأة اليهودية– المعاملات التجارية)، ولكن على الرغم من ذلك كله بقيت لهم حقوقهم، ووجودهم المؤثر في المجتمع العربي المسلم.

ث– صورة الطبيعة:

كانت طبيعة العالم العربي حاضرة بقوة فيما دونته الأديبة، ولعلّ أهم ما يميز طريقة تعاملها مع مشاهداتِها، أنها لم تجعل عاطفة الإعجاب تطغى على صورها؛ فهي في خضم إعجابها بجمال الطبيعة، لا تنسى تسليط الضوء على سلبيات ذلك المشهد، ومن ذلك قولها في وصف البصرة:

" الواقع أنّ البصرة مدينة غريبة إنها تريك مشاهد مختلفة في اليوم الواحد، ففي حالة المدّ... يخيّل إلى المرء أنّه في الجنّة الموعودة.. وعندما تهبط المياه...فيتصور أنّه ترك الجنّة ووقع في غدران نتنة"[23].

وقد يكون مصدر الإعجاب ناجماً عن المقارنة المباشرة بين الأنا والآخر التي تحمل جوانب الاتفاق والاختلاف، فيكتمل المشهد لدى المتلقي مهما كانت هويته وانتماؤه:

"نخترق شطّ العرب فرحين مسرورين دون أن يعكّر صفونا شيء... ننظر إلى ضوء القمر الفضّي بروعة وافتتان كأننا في البندقية...، ولكن لا ليست هذه بندقية إيطاليا، بل هي بندقيّة الأقاليم الاستوائية؛ فالسماء صافية... والبيوت مختفية تحت ظلال غابات النخيل الكثيفة" [24].

ومن ثم، فالصورة السابقة ذات وجهين ظاهرين، الأول عربي يتلقاه الغربي، ويدرك أبعاده من خلال استحضار صورة البندقية، والآخر غربي يتلقاه العربي ويدركه من خلال معرفته لشط العرب، وإسقاط صورته على البندقية، وكلّ متلق يدرك من كلام الأديبة وجوه الاختلاف.

لفت مناخ العراق الأديبة، فصورته بدقة، وهذه الدقة ناجمة عن الاختلاف الكبير الذي لمسته فيه، فهو يختلف جذرياً عمّا رأته في موطنها، وهذا جلي في قولها :

" الواقع أنّ مناخ البلدان الشرقيّة يبعث على العجب والدهش، حتى الشتاء لا يستطيع أن يُلبس الأرض لباس الأسى، وكل ما يحدث هو أن يتغيّر منظرها بعض الشيء، ومع أنّ الهواء بارد، فما زالت الأشجار مخضرّة"[25].

فالمتلقي يلمس وجود صورة حاضرة في ذهنها عن مشهد الشتاء الأوربي الذي افتقدته في البلدان الشرقية كما أسمتها.

والمقارنة قد تنجم أحياناً بين صورة قديمة مستقرة في الذهن، ومصدرها القراءة والاطلاع أو السماع، وبين الواقع الحالي الذي مصدره المشاهدة المباشرة، وهذا ما حصل مع الأديبة في تدوين مشاهداتها في قرية القرنة:

---

[22] رحلة الفرنسية مدام ديولافوا...، ص106.

[23] رحلة الفرنسية مدام ديولافوا مدام ديولافوا ، ص23.

[24] المصدر نفسه، ص21.

[25] رحلة الفرنسية مدام ديولافوا...، ص53.

"بلغت السفينة بعد ساعات عدة قرية صغيرة تسمى القرنة ... تشير المعلومات التاريخيّة القديمة إلى أن هذه القرية كانت من أجمل بقاع العالم... ولكنها اليوم... لايطالعك فيها إلا ساحل قذر تغطيه مياه الفيضان حيث لا يبدو منه في بعض الأيام شيء... ولو أن أجدادنا رفعوا رؤوسهم، ورأوا القرنة على ما هي عليه الآن لأنكروا عيونهم"[26].

فمن الواضح أنّ لهذه المدينة التاريخية صورة مشرقة في الوعي التاريخي الأوربي بصورة عامة، ولدى الأديبة بصورة خاصة، ولكنّ ماشاهدته يقع في جهة مختلفة تماماً.

وفي الواقع كثرت المواقف التي كانت المقارنة حاضرة بين الصورة التي استقرّت في أذهان الأوربيين، وما لمسته الأديبة بنفسها، ولاسيّما عندما يكون مصدر الصورة المستقرة كتاب ألف ليلة وليلة وغيره من الكتب التي أظهرت المنطقة العربية الإسلامية بصورة جميلة يتوق إلى رؤيتها كل إنسان:

" نستطيع أن نقدّر عذاب وآلام الموظفين المساكين الذين حُكم عليهم بأن يسكنوا في مثل هذه المملكة، وهؤلاء المساكين قد اعتادوا هذه الحياة القاسية اليوم، ولكنهم صُدموا بواقع بغداد صدمة عنيفة بعدما كان من قراءتهم عنها في كتاب ألف ليلة وليلة"[27].

والواقع أن أهمية مثل هذه المقارنات، تنبع من قدرتها على الكشف عن صورة الأنا العربية الإسلامية في المخيال الأوربي، بعيداً عن التصوير المباشر أحادي البعد.

ج-التكوين الديني والاجتماعي والقومي:

رصدت الأديبة أموراً تتعدى قضايا الجغرافية الطبيعية إلى الجغرافية البشرية والاجتماعية إن جاز لنا القول، فتحدثت عن تعدد التكوين القومي والديني في البلاد العربية واختلافه، ومن ذلك ما قالته في وصف البصرة:

" في هذه المدينة الموبوءة طبقات مختلفة متفاوتة، كما أنّ فيها أنماطاً شتّى من الأهلين، كلّ له خصائصه المميّزة من حيث طرز اللباس والمعتقدات..." [28].

إذا ما دققنا في الوصف التسجيلي السابق، فإننا نلمس عدداً كبيراً من الأحكام التي تقدم الوجه الاجتماعي والسياسي للعرب، فهم يقبلون التعدد، ويحترمون الاختلاف، وربما لا نستطيع أن نؤكد وجود المقارنة الخفية التي مصدرها المنبت الثقافي للأديبة، ولكننا لا يمكن أن نتجاهل أثر هذا التنوع الديموغرافي فيها؛ إذ إنه كان المحرّض الأول لما قدمته من تصوير، ولعلّ أهم ما يلفت النظر في هذا السياق، الاحترام المتبادل لهذا التنوع، فالعرب والمسلمون والأرمن كل يقبل الآخر، ويحترم اختلافه الديني أو القومي، بل ربما نجد أحياناً أن هذا الاحترام يصل إلى درجة التقليد، ليس من أجل التقليد فقط، بل للاتفاق مع الذوق العام الذي ينظم مشهد الحياة، ولاسيّما ذلك الأمر الذي يتعلق بلباس المرأة:

"أمّا النساء الأرمنيات، فإنّهنّ يلبسن أثواباً فضفاضة يسحبنها على أتربة الشوارع القذرة، إذا ما سرن بها خارج منازلهن، والمرأة الأرمنيّة لا تخرج سافرة كالمسلمة، بيد أنها في أغلب الأحيان تضع على وجهها قطعة رقيقة من القماش الأسود، أو تلفُّ رأسها بمنديل حريري...، تحلّي يديها بالأساور الذهبيّة، وصدرها بالحلي النفيسة، وشعرها بجواهر ثمينة متلألئة، أما حذاؤها، فيبعث على القرف والاشمئزاز لقبحه، وأبشع ما فيه أزراره الزجاجيّة أو المعدنيّة"(29).

فحجاب المرأة المسلمة الذي يُعدّ رمزاً مهماً لصورتها، يلقى قبولاً من المرأة الأرمنية التي تحاول تغطية شعرها بطريقة ما من دون أن تمحيَ هويتها الأساسية، فهي امرأة تخرج متزينة بأجمل الحلي والجواهر.

وفي سياق التأثير والتأثر، واحترام العادات، سردت لنا الأديبة مشاهد تؤكد احترام المرأة الأوربية للباس المرأة العربية المسلمة، وفي الوقت نفسه نجد كلاً من الرجل الأوربي والعربي يتمسك بهويته، ولاسيما فيما يتعلق بلباسه:

---

[26] المصدر نفسه، ص36-37.

[27] رحلة الفرنسية مدام ديولافوا...، ص63.

[28] المصدر نفسه، ص24.

[29] رحلة الفرنسية مدام ديولافوا...، ص25.

" وإذا كانت النساء الأوربيات قد تطبّعن ببعض طباع نساء المدينة البلديات، فالرجال منهم ... يحتفظون بملابسهم الخاصّة المتكوّنة من بنطلون خاكي يميل إلى الصفرة، وسترة لا يستطيع المرء أن يعيّن لها شكلاً أو لوناً واحداً، وقد علمت أن هذا اللباس غير الجميل يقلّل من قيمة هؤلاء بين السكّان الأصليين الذي يرتدون الكوفيّة والعقال والعباءة دائماً تلك الملابس التي يعتزون بها، ويعتبرونها من مظاهرهم القوميّة الكريمة"[30].

ولكن، على الرغم من احتكاك الأديبة بالبيئة العربية، فإنها تحرص أحياناً على تحديد مصدر ما تقدمه من صور، ومن ذلك قولها في وصف البصرة مستندة إلى كلام الطبيب:

" وممّا ذكره الطبيب لنا أيضاً قوله: إنّ البصرة تكاد تكون مجمع المذاهب المختلفة التي يقارب عددها عدد ما فيها من أنواع النخل..." [31].

لا يحتاج المتلقي كثيراً من الجهد حتى يكتشف الهدف الحقيقي لتفصيل الحالة الدينية في المدينة من جانب الأديبة، فهي بلا شك تنظر بعين الدهشة أكثر من اهتمامها بنقل المشاهدات أو راوية لما تسمعه من أمور تعدها غريبة، سواء ما تعلق بقضايا التسامح أو قبول الآخر، وهذا جليّ في قولها:

"ومن الجدير بالذكر أن طائفة الصابئة لها تقاليد وعادات مذهبيّة عجيبة جداً، فليس لديهم معبد مثلاً أو محراب للعبادة، كما هو الحال في المذاهب الأخرى، وأصحاب هذا المذهب يقربون من الدين المسيحي باعتقادهم يوحنا كما يعتقدون أن عيسى خلفه...أهم طقوس هذه الفئة التعميد الذي يتم بالماء للتطهير من الذنوب... إنّ حب المحافظة على الطهر، وتجنّب الأقذار عند هذه الطائفة، تكاد تبلغ مبلغ الهوس والوسواس... قسوسهم لهم حقّ الزواج، ولكن لا يسمح لنسائهم أن يعملن في الدور حتى بمجرّد أن يمددن أيديهنّ إلى أثاثها، أو أي شيء آخر؛ إذ ينبغي على القسوس أنفسهم أن يقوموا بالأعمال المنزلية كلها، من طبخ أو غسل... وأغرب من ذلك أنه يحظر عليهم أكل لحم البقر والجاموس والضأن والجمل... يعدون هذه الحيوانات بسبب خلقتها نجسة غير طاهرة...عندما يشرف أحدهم على الموت في سكراته الأخيرة...يحملونه إلى حفرة يحتفرونها ويضعونه فيها، والأنفاس تتردد في صدره ...ويبكون وينشجون في انتظار أن يجود بأنفاسه الأخيرة، وعندما يحين ذلك يهيلون عليه التراب بسرعة... من أجل ألّا تمس أيديهم جثّة الميت النجسة، ولكيلا يقربوها ما وجدوا إلى ذلك سبيلا"[32].

فمن الواضح أن الاختلاف كان سبباً مباشراً للتصوير السابق الذي أسهبت الأديبة فيه لإيضاح ملامح هوية الآخر الغريبة بدقة.

ح-التجارة:

قدّمت الأديبة جملة من الصور استهدفت الجوانب التجارية، ولكنها قدمتها مقرونة بالجانب الأخلاقي، وذلك عندما تحدثت عن طرق المعاملة، وأخلاق التجار وطباعهم وتقاليد التجارة والصناعة، وإذا ما دققنا في هذه الأخيرة، نجد أن معظم الصور تصب في الجانب السلبي، ومن ذلك حديثها عن تجار بغداد:

"ولن ترى من البائع البغدادي غير الانفعال السريع والحدة والخشونة إذا لم تشتر منه شيئاً...، أما صنائع بغداد البلدية، فلا تستطيع أن تشتري منها شيئاً ما لم توص عليه سلفاً لدى الصانع، وتسلفه بعض قيمته ...، وكثيراً ما يخلف الصنّاع مواعيدهم، فيتسبب عن ذلك كثير من المشاجرات والمنازعات، لا لهؤلاء السيّاح الأجانب فحسب، بل حتى للأهلين.... هذا هو حال المعاملات هنا وعليك التقدير "[33].

---

[30] رحلة الفرنسية مدام ديولافوا...، ص25.

[31] المصدر نفسه، ص29.

[32] رحلة الفرنسية مدام ديولافوا...، ص30-31.

[33] رحلة الفرنسية مدام ديولافوا...، ص30.

وإذا ما دققنا ملياً في الكلام السابق، وحاولنا رصد دواعي الاكتراث له من جانب الأديبة، فإننا قد نجد أن أهم مسوغات ذلك، هو الاستغراب الناجم عن الاختلاف، ولعلّ ما يؤكد ذلك محاولتها إيجاد أسباب لهذا السلوك مستنبطةٍ من التجارة والخبرة بالعلاقات التي تحكم عالمها، فهاهي ذي تقول معللة سلوك التجار في بغداد:

" وأعتقد أنّ علّة استسلاف هؤلاء الصنّاع أثمان المصنوعات، هي: أوّلاً للتصرّف بها كما يشاؤون، وتأخير إنجاز ما أوصوا بصنعه ما استطاعوا ذلك، فيفيدوا بذلك من الوقت والمال معاً، وثانياً: لأنّ الصنّاع يخافون أن يستغني المشتري عمّا أوصى به بعد إتمام العمل..."[34].

وبعيداً عن أخلاق التجار وعاداتهم، نجد الأديبة ترصد جوانب أكثر أهمية، ولاسيّما تلك التي تتعلق بطبيعة الحركة التجارية في تلك المرحلة التاريخية، وحجم التأثير الغربي في الاقتصاد العربي:

" ومما يلفت النظر في أسواق هذه المدينة المملوءة بالبضائع الثمينة(تقصد بغداد)... عدم ازدحام المشترين والعابرين، وبرودة الحركة التجارية؛ وذلك لأن البضائع الثمينة والأشياء النفيسة يحملها الدلالون إلى منازل الشارين...، ويمكننا أن نستثني من تلك الأسواق تلك التي تعرض الأقمشة الإنكليزية والبضائع الروسيّة، فإنك ترى فيها عدداً كبيراً من الناس في حركة دائبة..." [35].

إنّ أول تفصيل يستنبطه القارئ من الكلام السابق، هو ركود الحركة التجارية، أمّا ثاني تفصيل، فهو طريقة تسويق التجار للبضاعة، ولكن الأهم من ذلك كله، هو ما زعمته الأديبة من تهافت الناس على البضاعة الغربية، وهذا يكشف أموراً عدة ، وأهمها تلك المركزية الغربية التي سيطرت على الكاتبة، فجعلتها تضخم هذا التفصيل بالذات؛ إذ إن"المحددات الثقافية التي تؤدي أدواراً حاسمة في تثبيت المعايير التفاضلية بين الشعوب، كثيراً ماصاغت أو أعادت صوغ جملة من المعطيات الخاصة بمجتمع ما لتجعله يتصور أنه أفضل من غيره،"[36]و هذا ما أظهر ضعف الصناعة العربية في ذلك الوقت، ولهاث الناس خلف منتجات الآخر.

وأحياناً ترصد الأديبة أموراً تجارية طريفة لم تجد لها تعليلاً، ولاسيّما طرق المقايضة التي تجري بين التجّار في مدينة العمارة، يتجلى ذلك في قولها:

" في هذه المدينة –العمارة– أُفرغت حمولة سفينتنا... ولقد تعجّبت كثيراً لهذا الأمر، وكل من سألته لم يستطع أن يوضح لي هذا اللغز... من أن يُستبدل دجاج بدجاج، وتمر بتمر من النوع نفسه، وبقدر الكميّة السابقة"[37].

وفي نهاية المطاف، وبصرف النظر عن دقة ما ذكرته الأديبة في هذا السياق، فإنها قدمت للمتلقي الوجه التجاري للآخر العربي مشتملاً على تفاصيل كثيرة.

خ–فن العمارة:

كانت البيوت، وفن العمارة الشرقي بصورة عامة من أهم الأمور التي التفتت إليها الأديبة، فأظهرت قدرة أهالي المنطقة على التأقلم مع مناخها القاسي عبر ابتداعهم طريقة خاصة في البناء، ومن ذلك قولها:

"اضطر أهالي بغداد إلى إنشاء مساكنهم بطريقة خاصة يستطيعون به أن يقوا أنفسهم من تقلبات المناخ...؛ ففيها على هذا الأساس أربعة أقسام لكلّ فصل قسم خاص به ينتقلون إليه عندما يحلّ..." [38].

ولكن، على الرغم من ذلك كله، فإن الأديبة أكدت أن بيوت هذه المنطقة لم تكن مصدر إعجاب لها، فكان مما قالته:

" وتمتاز منازل الحلّة –كما هو الحال في بغداد– بأنّها مرتفعة الجدران، ليس لها من الخارج منافذ أو شبابيك البتّة، كما أنها تحوي سمات العمارة الشرقيّة وخصائصها...، ومن حسن الحظّ أن هذه الأشجار الكبيرة السامقة، قد وجدت هنا لتقلّل من بشاعة منظر

---

[34] المصدر نفسه، ص115.

[35] رحلة الفرنسية مدام ديولافوا...، ص115.

[36] المركزية الإسلامية وصورة الآخر في المخيال الإسلامي خلال القرون الوسطى، المطابقة والاختلاف: عبدالله إبراهيم، المركز الثقافي العربي، الدارالبيضاء، المغرب، ط1، 2001م، ص18.

[37] رحلة الفرنسية مدام ديولافوا...، ص40.

[38] رحلة الفرنسية مدام ديولافوا...، ص61.

دور هذه المدينة التي شيدت كلها على نسق واحد وطرز غير جميلة...لم نر في مدينة الحلّة بناية مهمّة تلفت النظر قد شيدت في العصر الإسلامي..." [39].

ومما يلفت النظر في هذا السياق الصورة الجميلة التي تحملها الأديبة عن العمارة العربية، ولاسيّما في العصر الإسلامي، وهذا واضح في افتقاد الأديبة لهذه الصورة في مدينة الحلة، وثمة شواهد كثيرة تدل على أنّ فن العمارة في هذه المنطقة كان مصدر إعجاب للأوربيين، وخاصة الفرنسيين الذين نفذ إلى إدراكهم عبر كتابات المؤرخين، فهم يعرفون الحدائق المعلقة وغيرها من معالم تفاخر بها هذه المنطقة بلاد العالم:

" والحدائق المعلّقة هذه لم يكن لها عمر طويلٌ، إلا أنّها كانت جميلة جذّابة كثيراً، فلقد كتب فيها الكونت كورس، وفاخر في كتابته حتّى إنه عدّها إحدى أعاجيب ذلك الزمن، كما أن ديودور الصقلي ذكر هذه الحدائق في بعض كتاباته، وأسهب في جمالها وروعتها"[40].

وفي هذا السياق تحسن بنا الإشارة إلى موضوعية الأديبة في نقل المشاهدات، وبيان أثر الحضارة العربية في الوعي الغربي، على الرغم من أنّنا قبضنا في ثنايا يومياتها على نصيب كبير من المركزية الأوربية والفرنسية، ومن ذلك قولها مشيرة مرة أخرى إلى معالم هذه الحضارة:

" ولكننا لا نستطيع بحال أن نصرف النظر عن زيارة برج بابل، وحيطان هذه المدينة العظيمة وحدائقها المعلّقة التي نسمع عنها منذ طفولتنا الأولى، فتثير اهتمامنا وشغفنا"[41].

فكلام الأديبة الذي صور حاضر هذه المدينة، كشف في الوقت نفسه مخزون الوعي الغربي عن الحضارة الشرقية التي كانت مبعث إعجاب الأوربيين.

ج- صورة المرأة العربية:

تصدرت المرأة بصورة عامة والعربية بصورة خاصة كثيراً من يوميات الأديبة، ولعلّ مرد ذلك يعود إلى أن المرأة تنتمي إلى دائرة الأنا الضيقة للأديبة(الأنثى)، هذا من جهة، ومن جهة أخرى خروج المرأة مثلها مثل جميع المكونات الأخرى من دائرة الأنا الغربية التي تشبثت بها الأديبة كثيراً، ولاسيّما في الأمور التي تحيط بالمرأة الأوربية، وتحكم موقعها في المجتمع كليّاً، وعلاقتها مع الرجل، وصفاتها النفسية والمادية، ومن ذلك قولها:

"وترى أمام تلك الدكاكين النساء القرويات، وقد عرضن أمامهن اللبن والدجاج والبيض التي جلبنها من ديارهن القروية القريبة...، وهاته النسوة يسرن في الشوارع سافرات الوجوه لا يحجبها شيء سوى المقنعة السوداء الصوفية التي تحيط برؤوسهن، ويضم قسماً من جبينهن وذلك –على ما أعتقد– ليكون حجابهنّ رمزيّاً، وتشبهاً بالنساء البغداديات إلى حدّ ما، وتستطيع أن ترى عن قرب وجوه هذه النساء على خلاف من سواهن من نساء هذه البلاد وأجسادهن، ولكنّ الشيء الجدير بالذكر، هو أنك لا تجد فيهنّ سمات الجمال والجاذبية التي وجدتها في نساء قبائل الفيلية العربية، وأعتقد أن مرد ذلك هو الأعمال الشاقة والمسؤوليات الضخمة التي ألقيت على عواتق هذه النساء..."[42].

ولعلّ أهمية الشاهد السابق، تتبع من أنه قدّم صورة دقيقة أظهرت اختلاف صورة المرأة ضمن دائرة الأنا الواحدة، فثمة صورة للمرأة الريفية، وأخرى للمدنية، وثالثة لمن قطنت في البادية، وعاشت حياة البداوة.

حظيت المرأة على اختلاف انتمائها الاجتماعي والبيئي بموقع مهم من يوميات الأديبة، ومن خلال تلك اليوميات استطعنا لمس الفوارق بين هذه النساء، فعلى سبيل المثال لدينا هذه الصورة لنساء المدينة:

---

[39] المصدر نفسه، ص131.

[40] رحلة الفرنسية مدام ديولافوا...، ص139.

[41] المصدر نفسه، ص117.

[42] رحلة الفرنسية مدام ديولافوا...، ص115-116.

" والنساء يذهبن لزيارة بعضهن بعضاً من سطوح المنازل، ويقضين الليل بالقيل والقال، وتدخين النرجيلة، وباحتساء كؤوس الشراب المثلج...، والنساء أكثر من يلقى الأذى والنصب لما يؤمن به الأهلون من العادات والتقاليد الغريبة؛ إذ يحظر عليهنّ أن يخرجن إلى الأزقّة وإن ارتدين ملابس فضفاضة تغطي أجسامهنّ من قمّة الرأس إلى أخمص القدم...؛ لذلك نرى العوائل المترفة والأوربيين يستفيدون من رقّة الجوّ هذه، فيخرجون إلى البادية...، ويحظر على النساء أن يشاركن في صيد الحيوانات الخطرة مع الرجال، بيد أنّه يسمح لهنّ أن يصدن الطيور ... في خلوات بعيدة عن الأنظار"[43].

وفي هذا السياق تحسن بنا الإشارة إلى الاهتمام الكبير الذي نالته المرأة البدوية من جانب الأديبة، فوجدناها تسلط الضوء على لباسها أحياناً، كقولها:

"كانت نساؤهم جميلات الملامح يرتدين ملابس طويلة تدلّ على العفّة والنجابة، ولها طيّات من الأمام والخلف، وكانت على رؤوسهنّ عمّات طويلة من أقمشة شتى، أمّا زينتهنّ فكانت مقصورة على بعض الأساور من الفضّة والزجاج والخواتم الرخيصة الأخرى"[44].

وتستهدف الأديبة الجانب النفسي، وأثر المرأة في حياة القبيلة أحياناً أخرى:

" وعندما تندلع نار الحروب بين شيخين من شيوخ القبائل، فأول ما يحرِّض الرجال، ويشجعهم على القتال هنّ هاته النسوة اللاتي يتحركنّ في أعقاب أزواجهنّ، ويحمسنهم بالصياح والصراخ على متابعة الحرب،... وإذا ما قتل أزواجهنّ في مثل هذه الوقائع، فإنهن يفتخرنّ"[45].

د- صور مشوهة:

ذكرت في غير موضع من هذا البحث دقة ما قدمته الباحثة من صور، ولعلّ السبب الرئيس في ذلك يعود إلى ناحيتين اثنتين:

أما الناحية الأولى، فهي أن مصادر الأديبة فيما قدمته من صور كانت تعتمد- في الدرجة الأولى- على المشاهد والاحتكاك المباشر، إذ إن التشويه أحياناً يكون سببه أن الأديب المُصوِّر لا يستند فيما يقدمه من صور على" أساس صلب من التجربة والمعرفة، والإحاطة بأوضاع ذلك المجتمع"[46].

أما الناحية الثانية، فهي امتلاكها نصيباً من الموضوعية. وهذا جلي في كثير من يومياتها.

ولكن على الرغم من كل ما ذكر، فإنها قدّمت صوراً مشوهة لابدّ من الإشارة إليها، فالباحث في مثل هذا الحقل البحثي يجب" أن يتفقد هذه الصور، ويبين ما بها من صواب وخطأ، ويشرح أسباب الخطأ فيها، ويدعو إلى وضع البلد أو الشعوب موضعها الصحيح من أفكار الأمة وأدبها"[47].

كانت المرأة العربية ضحية التشويه في كثير من المواقف، ولاسيّما تلك تتعلق بزواج الأرملة، أو صورة المرأة الجسدية من حيث الجمال والقبح، وهو أمر قد يقلّ أهمية عن الأول، ولكننا لا نستطيع تجاهله، ولنا أسبابنا، ولعل أهمها، كونه يكشف غلبة الأهواء على الباحثة فيما تقدمه من لوحات، فأدى إلى تناقض كثير من الصور.

إذا ما عدنا إلى قضية زواج الأرامل، ولاسيّما في المجتمع البدوي، نجد الأديبة تنسف كل ما له علاقة بعادات عربية، وتعاليم إسلامية نظمت زواج الأرملة، فحددت العِدّة ومدتها خشية اختلاط الأنساب، وهو أمر لا يقبله العربي بصورة عامة، ولاسيّما البدو، ولكن الأديبة تقدم صورة خاطئة تماماً، فتقول:

---

(43) رحلة الفرنسية مدام ديولافوا...، ص62-63.

(44) المصدر نفسه، ص167.

(45) المصدر نفسه، ص168.

(46) صور أدبية في الحضارة الإسلامية (دراسات في صورة الآخر، وفي قصص بنت الهدى) تأليف الدكتورة: ماجدة حمود، من منشورات المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية بدمشق، بلا رقم طبعة و تاريخ، ص14، الأدب المقارن (مدخل نظري ودراسات تطبيقية): عبده عبود، مديرية الكتب والمطبوعات، جامعة البعث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1991-1992م، ص9.

(47) الأدب المقارن: محمد غنيمي هلال، دار العودة، بيروت، ط1، 1999م، ص427.

" عندما تندلع نار الحروب بين شيخين من شيوخ هذه القبائل، فأول من يحرض الرجال ويشجعهم على القتال، هن هاته النسوة اللاتي يتحركن في أعقاب أزواجهن، ويحمسنهم بالصياح والصراخ على متابعة الحرب، كما يقع على عاتقهن حراسة الأسرى والمغلوبين وتعذيبهم، ولهن في ذلك وسائل مبتكرة طالما يفتخرون بها، وهن على الدوام يفكرن في طرق جديدة أخرى للقضاء على الأعداء فلا يبقون مدة طويلة في الأسر. ففي بعض الأحيان يحرقنهم على النار بالتدريج، وفي أحيان أخرى يقطعنهم إرباً إرباً بالسكين، وعندما يقدمن على مثل هذه الأعمال، فإنهن يصبن بحالة انفعال، و تأثر شديد تقرب من الجنون. وإذا ما قتل أزواجهن في مثل تلك الوقائع فإنهن يفتخرن، ولكن عندما يتقدم منهن من يطلب يدهنّ للزواج، فإنهن يحبذن على الفور، ويقبلن الزواج منه، ومن الممكن أن تتزوج الأرملة منهن ثانية بعد يوم أو يومين من قتل زوجها الأول"[48].

طبعاً ثمة سبب وراء هذا التشويه، ولكننا يمكن أن نرده إلى الانفعال الذي كان يلف الأديبة في أثناء تقديم الصورة، ففي بداية كلامها السابق نلمح انفعالها ومبالغتها بما تقدمه المرأة من واجبات الحراسة، وتنزع عنها صفات الأنوثة والرقة وهي تقطع أجساد الأسرى، وكذلك انبهارها بمشاعر المرأة نحو زوجها، وتأثيرها فيه من ناحية بث الحماسة والشجاعة، ويبدو أنه أمر غير معتاد عند الأديبة، وهذه الأمور مجتمعة، جعلت الأديبة ترفض فكرة زواج الأرملة فساقتها بهذه الصورة الخاطئة.

إن الشاهد الآتي يؤكد فكرة انجرار الأديبة تجاه عواطفها وذاتيتها فيما قدمته من صور، فهاهي ذي تحكم مسبقاً بوجود كره قابع في نفوس المرأة العربية تجاه الأوربيين، وبناء على هذا الحكم الخاطئ تصدر الأديبة تشويهاً لصورة المرأة الجسدية، فتراها قبيحة دميمة، تقول:

" ولقد وضح لدينا أن هاته النسوة كن ينفعلن من رؤيتنا، بحيث لا يستطعن إخفاء شعورهنّ المعادي لنا، أو إسماعنا الكلمات الجارحة، ولعل مردّ ذلك تحديقنا في وجوههن، أو الكراهية المتأصّلة في قلوبهن ضد الأوربيين، ... لم يمنعنا ذلك من التطلّع إليهنّ، وإن كانت وجوههنّ دميمة تبعث على القرف والاشمئزاز وأجسامهنّ قذرة "[49].

والواقع أن التشويه هنا متعدد الأبعاد، وأول أمر هو أنها سلبت المجتمع العربي صفة الكرم، والأمر الآخر هو اتهام العربي بعدم قبول الآخر، والعداء المطلق للأوربيين من دون دليل، والأمر الثالث هو الحكم المطلق على قبح المرأة العربية.

وإذا ما دققنا في الأمور السابقة كلها، نجد خيطاً يربطها جميعاً، وهو الانفعال والتسرع في إصدار الأحكام، فالأديبة نفسها التي تشمئز من رؤية المرأة البدوية، هي نفسها تشير في غير موضع إلى جمالها، ومن ذلك قولها الآتي الذي يضعنا أما صورة مناقضة تماماً:

"كانت نساؤهم جميلات الملامح يرتدين ملابس طويلة تدل على العفة والنجابة، ولها طيات من الأمام والخلف، وكانت على رؤوسهن عمات طويلة من أقمشة شتى. أما زينتهن فكانت مقصورة على بعض الأساور من الفضة والزجاج ، والخواتم الرخيصة الأخرى .والخلاصة أن جميع النساء والرجال، أحاطوا بالنار التي أشعلوها لتدفئتنا، وأنني استطعت في ضوء الموقد الخافت أن أتطلع إلى المنظر الجميل الذي كان مرتسماً أمامي. والواقع أن هاته النسوة البدويات بقاماتهن الفارعة، وسماتهن الجذابة، وشعورهن... المتدلية إلى ما يقرب النحور، يستحقن كل تمجيد و تحسين. وإنني سررت كثيرا بمشاهدتهن لدرجة أني نسيت مرضي تماماً"[50].

ففي هذه اليومية نجد غياباً تاماً لرفض العرب للآخر، وأيضاً نلمس غياباً تاماً لبشاعة المرأة العربية البدوية المزعومة.

نتائج البحث:

- استهدفت الأديبة مختلف مجالات هوية الآخر العربي، وذلك بحكم الاحتكاك المباشر معه.
- شكلت المشاهدة الشخصية والاحتكاك بالآخر مصدراً لنصيب كبير من الصور التي قدمتها الأديبة، ولم تعتمد على السماع إلا في نقل بعض التفاصيل.

---

[48] رحلة الفرنسية مدام ديولافوا...، ص168.

[49] رحلة الفرنسية مدام ديولافوا...، ص144.

[50] المصدر نفسه، ص167.

- تنوعت أنماط التصوير وأشكاله بين الوصف التسجيلي، والتصوير المقارن بنوعيه المباشر وغير المباشر؛ وهذا الأمر هو ما سمح بظهور تفاصيل كثيرة تخص الأنا المصوِّر والآخر المصوَّر.
- اتسمت معظم الصور بما يوحي بموضوعية الأديبة، وتنحية الذات.
- تنوعت الموضوعات التصويرية، وشملت جزئيات دقيقة لملامح وجه الآخر، وذلك لأن الأديبة دونت ذلك بأسلوب اليوميات التي لا تهمل شاردة ولا واردة.
- قدّمت الأديبة بعض الصور المشوّهة عن العرب، ولكنّها سلمت من الرغبة الواضحة في تشويه صورة الآخر العربي، فجاء ذلك التشويه نتيجة التسرع في إطلاق الأحكام، والجهل بتفاصيل مهمّة، ولاسيّما تلك التي تتعلق بالأمور الدينيّة، وبعض العادات الاجتماعيّة.
- رصد البحث ملامح لمركزية أوربية على حساب الاعتراف بالآخر العربي.
- أبرز البحث اعتراف الأديبة بامتلاك العرب رغبة واضحة في التسامح والاعتراف بالآخر القريب والبعيد.

المصادر والمراجع:

1. الأدب المقارن: محمد غنيمي هلال، دار العودة، بيروت، ط1، 1999م.
2. الأدب المقارن (مدخل نظري ودراسات تطبيقية): عبده عبود، مديرية الكتب والمطبوعات، جامعة البعث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1991-1992م.
3. الإسلام والآخر (دراسة مقارنة): عبد الرحمن عطية، دار الأوزاعي، حلب، بيروت، ط1، 1427هـ .2006م.
4. الإسلام والرأي الآخر (تجربة الإمام علي نموذجاً)، تأليف الدكتور: حسن السعيد، دار الهادي، ط1،بيروت ، 1424هـ . 2003م.
5. إشكالية التيارات والتأثيرات الأدبية في الوطن العربي (دراسة مقارنة): سعيد علوش، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1406هـ . 1986م.
6. تاج اللغة وصحاح العربية: إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار الكتاب العربي، ط1، 1956م.الرحلات: شوقي ضيق، دار المعارف، مصر، ط4، بلا تاريخ.
7. رحلة الفرنسية مدام ديولافوا من المحمّرة إلى البصرة وبغداد سنة1299- 1881م: جان بل هنريتديولافوا، ترجمها عن الفارسيّة: علي البصري، مراجعة وتقديم: د.مصطفى جواد، الدار العربية للموسوعات، ط1، 1427هـ.
8. صورة الآخر في الشعر العربي (من العصر الأموي حتى نهاية العصر العباسي)، تأليف الدكتور: سعد فهد الدويخ، عالم الكتب الحديث، الأردن، إربد، ط1، 1430هـ . 2009م.
9. صورة الآخر العربي ناظراً ومنظوراً إليه، تحرير: الطاهر لبيب، مركز دراسات الوحدة العربية، الجمعية العربية لعلم الاجتماع، بلا رقم طبعة أو تاريخ.
10. صور أدبية في الحضارة الإسلامية (دراسات في صورة الآخر، وفي قصص بنت الهدى): ماجدة حمود، من منشورات المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية بدمشق، بلا رقم طبعة وتاريخ.
11. صورة الغرب في الأدب العربي، رواية فياض لخيري الذهبي (نموذجاً): غسان السيد، مجلة جامعة دمشق، المجلد 24، العدد 3+4، 2008.
12. العين: الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: عبد الله درويش، الدار القومية، بغداد، ط1، 1967م.
13. لسان العرب: ابن منظور، تحقيق: عبدالله علي الكبير الشاذلي، دار المعارف، القاهرة ، ط1، 1979م.
14. مدارس الأدب المقارن: سعيد علوش، المركز الثقافي العربي، ط1، 1987م، ملحق (3).
15. المركزية الإسلامية وصورة الآخر في المخيال الإسلامي خلال القرون الوسطى، المطابقة والاختلاف تأليف الدكتور: عبدالله إبراهيم، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2001م.
16. المركزية الغربية: عبدالله إبراهيم، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط1، 1997.
17. معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة: سعيد علوش . دار الكتاب اللبناني، بيروت، سُوشيريس، الدار البيضاء، ط1، 1405هـ- 1985م.